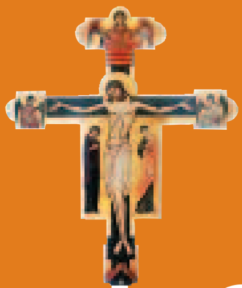

الصليب

السنة الثالثة | العدد التاسع | أيّـار ٢٠١٠

عدد خاص عن «سرّ التوبة والإعتراف»

موقع التوبة في حياة الإنسان الخادم في الكنيسة

حول الإعتراف والأب الروحي

كيف ينبغي أن يستعدّ الإنسان للإعتراف؟

رسالة من علمانية إلى كاهن!

محتويات
العدد التاسع
«الصليب»

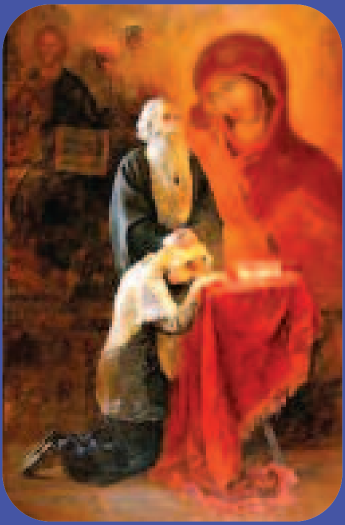

موقع التوبة في حياة الإنسان ٣
الأب الروحي ٧
حول الإعتراف والأب الروحي ٩
رسالة من علمانية إلى كاهن ١٢
الصورة الإلهية في الإنسان ١٣
أيقونة المصالحة ١٦
المصالحة ١٧
التوبة والمصالحة عبر التاريخ ٢١
كيف ينبغي للإنسان أن يستعدّ للإعتراف ٢٦
طريق التوبة ٢٨
أنت تقول ... أمّا الله فيقول ٣١

موقع التوبة في حياة الإنسان الخادم في الكنيسة

«المطران افرام كرياكوس»

الموضوع دقيق، يعرض العلاقة بين التوبة والخدمة. هذا شيء دقيق وصعب لأنه مجهودٌ شخصيٌ وجماعيٌ في آنٍ معاً: ينطلق من دافع شخصيّ داخليّ ويذهب إلى رسالة نحو الجماعة والعالم.

بالنسبة للموضوع والعنوان المطروح أنطلق من تحديد للتوبة للقدّيس يوحنا الدمشقي الذي جاء في كتابه المعروف عن الإيمان الأرثوذكسي: «التوبة هي العودة من ما هو ضدّ الطبيعة إلى ما هو بحسب الطبيعة من الشيطان إلى الله، عبر الوجع والجهاد أو التقشف والنسك».

نقول باختصار كما نعرف من تاريخ الكنيسة إن التوبة هي العودة إلى الله. وهنا أورد بعض النقاط التي تساعدنا على تحديد ما هي العودة إلى طبيعة الإنسان الأصلية، سيرة العودة، وثانياً في عمل الشيطان ضدّ المسيح anti Christ وتخطّي العقبات التي يضعها الشيطان لنصل إلى الله. وهي تتطلب هذه المعاناة: هذا الألم الداخلي، شيئاً من الجهاد والتدريب النسكي.

ما يناسب موضوعَنا اليوم هو خبرة بولس الرسول عند اهتدائه على طريق دمشق (أعمال الرسل٢٦: ١٥-١٨): ''فقلتُ - بولس الذي كان شاول - من أنتَ يا سيّدُ؟ فقال أنا يسوع الذي أنت تضطهده - ونعرف أن اضطهاد المسيح يتمّ عندما يخطىء الإنسان - ولكن قمْ وقفْ على رجليك لأني لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادماً وشاهداً لما رأيتَ وما سأظهره لك به، منقذاً إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أُرسلك إليهم لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلماتٍ إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي غفرانَ الخطايا ونصيباً

مع القدّيسين''.

من يحلّل هذا المقطع يرى فيه خلاصةَ اللاهوت الأرثوذكسي. سأحاول أن أعرض بعض نقاط هذه المسيرة التي تبدأ في داخل الإنسان وتنطلق إلى العالم. هي مسيرةُ الخلاص، لذلك يعتمدها الآباء، هي عملُهم، برنامجُهم طيلة الحياة، من الولادة حتى القبر (باعتبار أن بعد الموت لا مجال للتوبة.) إذا اعتبرنا أننا كنا في حالة الخطيئة أي التي هي ضد الحالة الأصلية نكون، حسب عبارة القدّيسين وأعمال الرسل، مستعبَدين للشيطان. هذا ما يقوله القديس بولس في رسالة (روه: ١٢) ''لأنه كما بإنسانٍ واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع».

القضية هي أننا كنا ولم نزل، إذا ما ابتعدنا عن الله، في هذا الإستعباد وفي تعبير عصري: نحن مستعبدون لـ «غريزة البقاء» Instinct de conservation، هذه الغريزة المركّزة على الذات الأنانية المفتّشة عن اللذة. وهذا ما حرّرنا منه الله بالمحبة على الصليب. لذلك يقول القديس يوحنا الدمشقي نحن بحاجة إلى الألم وكما يقول القديس اسحق السرياني: ''الذي يعترف بخطيئته (ويبكي ويتألم عليها) هو كمن عَبَر من الموت إلى الحياة».

هناك إحساس بالموت لا بدّ منه في طبيعة الإنسان الضعيف ومن ينقذنا من هذا الشيطان ويحرّرنا منه سوى المسيح وحده، بالتصاقنا به وبكلامه. إيماننا هو وحده الذي يستطيع أن ينقذنا من إبليس، وبدون ذلك لا نستطيع التخلّص منه.

إذا كنا مستعبدين لهذه الدنيا، وهذا شيء طبيعي حسب البعض، لا نستطيع أن ننطلق إلى المسيح.

١- نحن نتوجع عندما نتأمل هذه الطبيعة الضعيفة التي نحملها، والأحداث كلّها تُظهر بوضوح هذا الإنسان الذي يتعذب ويتصارع ويتمخّض ولكن نحن المؤمنين نتوجع بصورة خاصة لأننا نحب الله، نحبّ أن نصعد هذا السلّم، أن لا نبقى على الدرجة التي نحن فيها. محبتّنا تدفعنا إلى أن ننسلخ عن أنفسنا عن أنانيتنا.

«إن كان أحدٌ يأتي إليّ ولا يُبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لوقا١٤: ٢٦).

إذ عندها لا تكون تخدم الله بل نفسك. محبتنا لله، عشقنا له، يدفعنا إلى أن نتخلّى عن أنفسنا.

٢- نحن أيضاً نتألم لأننا فقدنا النعمةَ الإلهية. نعمل من أنفسنا، من تفكيرنا وليس من نعمة الله. الإنسان متروك إلى

قواه البشرية فقط، لم يعد مسنوداً من النعمة الإلهية. هذا عندما نعي طبيعتنا الضعيفة نعود نتوق إلى التمتع بهذه النعمة وهذا لا يحصل إلاّ إذا تخطينا أنفسنا.

يقول القدّيس غريغوريوس بالاماس ''الذي لا يرى الله لا يستطيع أن يتخطى نفسه، رؤية المجد الإلهي لا بدّ منها لكي يتخطى الإنسان أهواءه وشهواته». لا نستطيع الخروج من هذا الجسد إلاّ إذا عشقنا الربّ. الذي يعشق شخصاً آخر يتخلى عن كل شيء.

لكل هذه الأسباب التي ذكرتها، ولهذه الحاجة للعودة إلى الله إلى المجد الذي فقدناه، لا بدّ من اعتراف.

الاعتراف

ضعفنا في الكنيسة أننا لا نعترف. يبقى قلبُنا مغلقاً. لماذا الاعتراف؟ الاعتراف هو الإقرار بالخطيئة. هنا نعود إلى قول القدّيس نيقوديموس الآثوسي الذي يتكلم عن سر الاعتراف والتوبة: ''إننا بحاجة لمعالجة هذه النفس المريضة، أولاً لأن الأفكار السيئة، إن لم تُكشف تصبح أفعالاً، وإن كُشفت ضعف فعلها».

ويقول أيضاً: ''التوبة والاعتراف يجعلانك تستعيد حريتك ويُطلقاك

لخدمة المجتمع، لأنك أصبحت حراً بالمسيح وتتصالح مع الجماعة». ويشهد بولس: «إن تألّم واحد تألمت الجماعة» (١كور١٢:٢٦). يقول القديس باسيليوس: «الذي يمرض في نفسه لا بدّ أن يستشير طبيباً لكي يساعده على الشدّة». وفي رسالة يعقوب: «اعترفوا بعضكم لبعض وصلّوا بعضكم لبعض لكي تشفوا» (يعقوب ٥: ١٦). من هذا المنظار يجب أن تعالج الكنيسة نفوسَ الناس وتعزّيهم وتشفيهم وإلاّ تركتهم للأطباء النفسانيين والسحرة والشيوخ والمشعوذين. هل تتخلّى الكنيسة عن رسالتها: «الكنيسة هي مستشفى بكل معنى الكلمة». أسّسها الرب والرسل وخلفاؤهم لتشفي نفوسَ الناس وتقودهم إلى الخلاص.. يقول القديس نيقوديموس: «التوبة والاعتراف مدرسة لشفاء الإنسان من الداخل».

بالنسبة لهذه المدرسة، لهذا العمل، يقول إن هناك دوراً لي أنا المعترف، ثم دوراً للكاهن ثم دوراً لله. في هذه العملية الشفائية، دوري أنا هو أن أحاول أن أفتح قلبي، أن أكشف عن نفسي حتى لا يسيطر الداء عليّ وهذا معروف في الإرشاد النفسي، ودور الكاهن الذي يمثّل الجماعة هو الإرشاد والمصالحة مع الله والجماعة والمساعدة في إعادة الحريّة للإنسان. أمّا دور الله وهو الأهم والذي ننساه نحن المؤمنون، فمختلف عن المساعدة التي يقدّمها الأطباء وعلماء النفس، دور الله يكمن في عمل النعمة الإلهية فينا، هذه النعمة التي فقدناها بسبب خطيئتنا. نجد أنفسنا أمام الكاهن الذي أعطاه الله هذا السلطان وهذه النعمة، من خلاله نستعيد النعمة الإلهية التي وحدها تشفي. هذا هو إيماننا. يقول الذهبي الفم: «كل شيء في الإنسان يتمّ باسم الآب والابن والروح القدس».

إذا أردتُ أن أركّز على جدّية هذا السعي الذي يتطلب فهماً وإيماناً ومعرفةً بأننا بحاجة إلى أن نفحص أنفسنا ونعالج أنفسنا ونلتصق بالله وعيش مع الله، أن لا نخاف من كلّ ظروف الحياة القاسية، أن نسعى للتضحية للخدمة، أن نمتثل بالملائكة. للملائكة وظيفتان: تسبيح الله على الدوام والثانية، التي هي نتيجة كونهم يعيشون مغتذين من وجه الله، من كلمته، عند ذلك «يُرسلون إلى الخدمة من أجل الذين يرثون الخلاص» (عب١: ١٤).

علينا أن نتمثل بالملائكة، أن نلتصق بالله عن طريق الصلاة والتسبيح، أن نعود إليه بالتوبة والاعتراف، حتى نستحق حمل رسالة المسيح إلى هذا العالم، أوّلاً إلى الكنيسة التي عند ذلك تتجدد والى العالم كلّه بعد ذلك. آمين.

الأب الروحي

«ماريا قباره»

الأب الروحي حالةٌ في كنيستنا نراها بالكاهن الذي يمارس سرّ التوبة والاعتراف. وقد يكون هذا الأب كاهناً أو راهباً، والأبوة لا تتحقق فقط بالدراسة أو بالتعليم بل بالتلمذة والخبرة الطويلة فهي موهبة وديْنونة، نعمة ومسؤولية أمام الديَّان العادل.

وفي التراث الأرثوذكسي الأب الروحي من تجرَّد عن كلِّ هوى واستكان بالروح القدس حكمةً وتمييزاً وتجلّى فيه فكر المسيح وطاعته، فهو يرى النفس البشرية المحبوبة من الله متألمة بخطاياها التي تعترف بها، ومن هنا فالعلاقة الصحيحة بين الأب الروحي وابنه هي العلاقة الموضوعية التي لا انفعال فيها ولا هوى يسوقها.

هناك تشوش مابين حالة الأب الروحي والأب المعرِّف، فالكنيسة كأمٍّ مقدِّسة لأبنائِها رأت في ممارسة سرّ التوبة والاعتراف ضرورة حيويّة لنقاوة أبنائها، أمّا دور الأبّ الروحي فيتجلّى في تبني التدريب المتواصل لمسيرة الشخص الروحيّة،

لذلك لا يمنع أن نمارس سرّ الاعتراف بمعزلٍ عن أبينا الروحي بسبب ظروف قائمة وهذا لا يلغي دور الأب الروحي ولا يبطل أبوته وبنوتنا لأنّنا في النهاية آباءً وأبناءً نلتمس وجه الرّب يسوع، فهو أبونا ومعلُمنا الوحيد ويختار أقنيته للتواصل معنا كما يشاء هو ويرتأي.

أمّا إغراء الاعتراف عند الكاهن البتول بدلاً من كاهن الرعية المتأهل فهو إلى ازدياد لا وعي ولانضج فيه للطرفين، وهذه العادة إن دلّت على شيء فهي تدّل عن عدم وعينا للروح الكنسيّة الأصيلة التي يجب أن نكون عليها، فالنعمة التي أُخذت في الشرطونية هي نفسها للخادمَين. ونحن خير من يعرف من التقليد أنّ الرسل

عندما دعاهم الرّب للبشارة كان لهم عائلات، فقد كانوا متزوجين عدا الحبيب يوحنا. والبتولية بمعناها العام والمفترض هي الحبّ الأكثر للسيد نسكاً وخدمةً وبالنتيجة موهبة وعطية، وهذا هو تعليم آباء الكنيسة على مختلف العصور.

وقد حذرنا هؤلاء الآباء من تجربة في غاية الخطورة وهي الإعجاب بالأب الروحي بطريقة تؤدي إلى إعاقة حياتنا الروحية إذ إننا نقف عند أبينا كمثالٍ وليس عند اللّه ونسعى إلى أن نصبح نسخة أخرى عنه وليس كما شاء اللّه لنا أن نكون، وهذا يعني فيما يعنيه أننا لا نجيد الانفتاح على اللّه بل بطريقة ما ننغلق على مشيئتنا حتى ولو كان يظهر لنا وللآخرين بما فيهم أبينا الروحي أننا نمتلك فضيلة الطاعة.

فغاية الأبوة الروحيّة أن يتجلى المسيح فينا كما نحن وليس كما هو. وينبهنا القدّيس السلمي في كتابه ''السلم إلى اللّه'' إلى ضرورة الحرص في إختيارنا للأب الروحي لأنَّه قد يقع في فخ السيطرة وتحقيق المشيئة الذاتية بظلّ وجودِ هكذا أبناء. في حين أنّ الأب الروحي ''الأمين على بيت سيده'' (لوقا ١٧) يسعى بإبنه إلى النضج وإنماء مواهبه وصقلها.

وأمّا إن لم تحظَ بهكذا أب (وهذا أقلّه في أنطاكية! وفي العالم بأسره) فكما قال الرّب يسوع في انجيله ''لديك موسى والأنبياء'' (أيّ الكتب المقدسة). ولكن تبقى خبرة ممارسة سرّ التوبة والاعتراف تحمل من عذوبةِ التعزية ومظهر المحبة الأصيلة المتجلّي في الإصغاء والحوار النادرَين في أجوائنا، فالإصغاءُ فنُ المحبةِ الخاصّ، والاعتراف ليس استجواب ولا دردشة، فالأب المجرّب لا يستهجن في سماعه السقطات ولا يبرّر الخطيئة، بل عليه أن يساعدَ هذه النفس فهو أصلاً لن يحمل شيئاً من زلات البشر فالمسيح من حملَ خطايانا.

ويسعى بحنانٍ دؤوب إلى معرفة الجذر الذي نبتت منه شجرة الخطيئة هذه، ويجتهد بصبر متوسلاً إلى اللّه أن يرحمنا، فيأتي العلاج حالة شخصية في غاية الخصوصية فالذي يقال لهذا لا يقال لذاك ولا يطبّق عليه. والتعاطف بين الابن والأب الروحي ضرورة وحاجة، وهذا لا يعني أن الأب الروحي يفتش لأن يكون محبوباً بل حرّاً من أيّ مديح ومتواضعاً كما ربه الذي يحبه هو، فالتعاطف يتجلّى كثمرة لعلاقة صحيحة وصحيّة بين الطرفين. وهذا الاستدفاء بين الأب والابن يعطي الطمأنينة والسلام للابن ليمشي قُدماً بطاعة المسيح بعينيّ أبيه، فهو من أعطاه وقته وأصغى إليه وحاوره ونمّاه للرّب لا له، بنعمة وبكنف الروح القدس.

حول الاعتراف والأب الروحيّ

«الأب بايسيوس الآثوسي»

إعداد راهبات دير
مار يعقوب الفارسي المقطّع - دده، الكورة

سؤال:
هل ينعم بالراحة الداخليّة مَن لا يعترف؟

الجواب:
كيف يكون مرتاحاً؟ لكي يشعر الإنسان بالراحة التامة يجب أن يطرد من داخله كلّ سوء وهذا لا يتم إلاّ بالاعتراف.

يفتح قلبه لأبيه الروحيّ ويقرّ بذنوبه وزلاّته باتضاع، فتُفتح أمامه أبواب السماء، لتحلّ نعمة الله عليه بغزارة، ويتحرّر من وقر خطاياه.

كما يهتمّ الإنسان المريض أن يكون دوماً على اتصال وثيق بالطبيب، هكذا على من يريد أن يكون ذا صحة روحيّة سليمة أن يكون دوماً على اتصال ويثق بأبيه الروحيّ.

مهما كان الإنسان ذا مستوى روحيّ سامٍ، ومهما استطاع أن ينظّم أموره الروحيّة بنفسه، لا يستطيع أن يجد راحة تامّة إلاّ باللجوء من وقت لآخر إلى الاعتراف، لأنّ الله يشاء أن يصلح الإنسانَ إنسانٌ آخر مثله. إنّه تدبير إلهيّ يقود الإنسان إلى الإتضاع.

لا يثمر الإنسان الروحيّ ثماراً روحيّة إلاّ بالاعتراف الصحيح، لأنّه بواسطته يطرد من نفسه كلّ ما هو غير مفيد.

من ضروريّات الحياة اليوم أن يلجأ المرء إلى أب روحيّ لكي يعترف ويجد إرشاداً. يجب على الآباء الروحيّين أن يضعوا لأبنائهم برنامج حياة روحيّة من صلاة ومطالعة ومداومة على حضور الخدم الكنسيّة ومناولة الأسرار المقدّسة، لأنّهم بهذا يحفظون أولادهم الروحيّين من الضياع، وهؤلاء يحيون حياة مطمئنّة دون قلق أو خوف.

من ليس له أبٌ ليرشده في مسيرته الروحيّة يعش قلقاً تعباً، وبصعوبة يصل إلى هدفه المنشود. وإن أراد حلّ مشاكله بنفسه، فإنّه، مهما كان متعلّماً، فإنَ روح الكبرياء والاعتداد بالذات هي التي تحرّكه لذلك يبقى في تخبّط وظلام.

وأمّا من يقصد أباً، بروح التواضع ونكران الذات، ليسأل نصحاً وإرشاداً يُساعَد، لأنّ الله سوف يمنح الأب الروحيّ، بدون شكّ، البصيرة ليعطيه الجواب والحلّ الملائمين.

من الأفضل جدّاً أن يكون للزوجين أب روحيّ واحد. لأنّه باختلاف الآباء تختلف أيضاً الآراء، وقد يخلق هذا جوّاً من التوتر بين الطرفين. وأمّا الأب الواحد فإنّه يعرفهما كليهما ويصلح أخطاءهما، فتحفظ بهذا دفّة حياتهما مسيرها بدقّة وبشكل صحيح.

من لا يقبل ملاحظات أبيه الذي يحبّه فإنّه، من الواضح، لا يستطيع أن يفيد نفسه بنفسه مهما كان حاذقاً.

إن لم ننظّف أنفسنا بواسطة الاعتراف، عندما نتمرّغ في أوساخ الخطيئة، فإنّنا نضيف إلى طيننا طيناً آخر، وعندئذ، تصعب عمليّة التنظيف وتتعذر جداً.

عندما يكون الأب الروحيّ مستنيراً يفهم ويميّز الحالات بعضها من بعض، ويمنح النصائح والإرشادات كما تقتضي كلّ حالة. لا يحتاج المرء إلى ساعات طوال وإلى كلام كثير لكي يعطي صورة واضحة عن نفسه إن كان ضميره حيّاً ويعمل بشكل صحيح.

ولكن إن كان داخله مشحوناً بالقلق، فإنّه لو تكلّم ساعات فلن يعطي الصورة الواضحة عن نفسه.

عندما نخطأ إلى إنسان ما علينا أن نطلب منه المسامحة ونصطلح معه قبل توجّهنا إلى الاعتراف للإقرار بذنبنا، لأنّه بهذا فقط تحلّ علينا نعمة الله. أمّا إذا

اعترفنا بخطايانا دون أن نكون قد اصطلحنا مسبقاً مع أخينا فلن نجد السلام الحقيقيّ لأنّنا لم نتّضع.

سؤال: لماذا لا يشعر المرء، وهو يعترف، بنفس الألم عندما يقترف الخطيئة؟

الجواب: قد يكون قد مرّ زمن طويل على اقتراف الخطيئة، واندمل الجرح ونسينا خطيئتنا. أو يكون الإنسان قد برّر نفسه أثناء الاعتراف.

لذلك أشير عليك أن أسرعْ إلى الاعتراف ولا تؤجل واحذر أن لا تبرّر ذاتك مطلقاً، لأنّ من يعترف ويبرّر ذاته لا يلقى الراحة الداخليّة عكس من يؤثّم نفسه ويلومها، فإنّه يشعر بغبطة داخليّة كبيرة بسبب ضميره الحيّ.

كلّ أب روحيّ لا يكون مستعداً أن يذهب إلى الجحيم، إن اقتضى الأمر، محبّة بخلاص أبنائه الروحيّين لا يسمّى أباً روحيّاً.

بالاعتراف الصحيح يُمحى كلّ الماضي، وينفتح باب جديد للحياة، وتحلّ نعمة الله لتغيّر الإنسان بجملته، ويختفي الاضطراب والحزن ويحلّ الهدوء والسلام، ليس داخليّاً فقط بل وخارجيّاً أيضاً إذ ينعكس سلامه على تصرّفاته وسكناته.

لقد أشرت مرّة على البعض بأن يلتقطوا لأنفسهم صوراً فوتوغرافيّة قبل الاعتراف وبعده ليروا بأنفسهم التغيّر الحاصل على ملامحهم، لأنّ الوجه يعكس حالة الإنسان الداخليّة. نعم إنّ أسرار الكنيسة تصنع العجائب، فكلّما اقترب الإنسان من يسوع المسيح الإله والإنسان كلّما تألّه وشعّ بالنعمة الإلهيّة.

إن أراد أحد أن يعيش حياة روحيّة حارّة تحت إرشاد أب روحيّ مختبَر سيذوق طعم الفرح العلويّ، الروحيّ، السماويّ، ولا يعد يهتمّ في ما بعد بالأمور الأرضيّة، الماديّة، الجسديّة.

رسالة من علمانية إلى كاهن

«ماريا إميل شنودة»

.. و أول ما قررناه هو أن نكتفي من نقد الكاهن، حيث انه دائماً محل نقد ،فأنه إذا اطال عظته نقول انه ممل ، واذا كانت قصيرة نقول انه لم يحضَر جيدا، اذا كان فرحاً و مرحاً فهو رجل طائش ، وإذا كان رزيناً وقوراً فهو متعال ومغرور، إذا كان كبيراً في السن فيقال ''عليه ان يتقاعد'' واذا كان صغير فهو لا يملك خبرة ،وحتى اذا مات يقال : كان عليه ان ينتبه أكثر الى صحته.

لقد قررنا الا نطلب منه الكثير ولا المستحيل، وفكرنا في ان يرسل كل واحد منا رسالة يعبر فيها عما بداخله، وتكون الرسالة بصيغة فردية لتصل الى عمق القلب واتفقنا على ان تكون هذه هي الرسالة:-

يا أبت الكاهن انا أحبك كما أنت ، أحبك حب غير مشروط ، فأنا ارى فيك ومن خلالك يسوع فكيف لا احبك؟ عليك فقط ان تؤمن بي، وبدوري في هذه الحياة وفي الكنيسة وانه مهما ارتكبت من اخطاء فأني اتعلم مع مرور الوقت.

اريدك ان تهون علي وتتفهم مشاعري وتمسح دموعي عندما اكسر باب عمق ذاتي واخلع اقنعة القوة ، وابوح لك بأسراري و بهمومي.

اتمنى منك ان تترك عندي سؤالاً عندما اتوجه للأعتراف فيكون السؤال بمثابة ''علامة مميزة لليوم الذي اعترفت فيه''

يا ابي الكاهن : انت تعلم ان النبات يحتاج من وقت لآخر، الى ازالة الاعشاب الضارة من حوله، اريدك ان تكون انت ذلك الشخص الذي يزيل عني تلك الاعشاب الضارة ، اتمنى منك ايضا تبالي بي عندما اشاركك بجزء من ذاتي فذاتي هي كل ما أملك ولا تدعي انك مشغول فأنا من الاشخاص الذي يجب ان تكون مشغول بهم!

يا ابي : اريد منك ان تستمع حقا الى ارائي وتساعدني على تنمية مواهبي

اعتقد يا ابتِ ان كل رسالتي تنزل تحت بند ان تكون شاهدًا للرحمة ، فيكفي ان مجتمعنا يقسى علينا ، ونحن من جانبنا نعدك بأن نصلي دائما لأجلك لأن تنمو في النعمة دائما .

يارب ، ان العالم ليس جميلا ، الناس جائعون -الى الخبز نعم - ولكن الى الحنان والتقدير والحب ايضا ، الناس يموتون لانه ليس لديهم اسباب للحياة .. يموتون من فقدان الرجاء ، يريدوا ان يحيوا بأسرارك الالهية التي تتم فقط من خلال الكاهن ، فساعده يا يسوع ان يلتصق بالرحمة الإلهيّة دوما فيكون لنا خير معين . امين.

الصورة الإلهية في الإنسان

«الأب الشماس اسبيرو جبور»

سر الشكر

السر الثاني العظيم هو سر الشكر. به يُبنى الإنسان في جسد المسيح ويأخذ بذار عدم الفساد والحياة الإلهية داخلياً. سر الشكر يفترض سر المعمودية. المعمودية تُعطَى للإنسان لتجدده وتؤهله إلى الشركة في جسد ودم المسيح. المعمودية تهب الإنسان نقاوة الصورة والمثال بالمسيح مبدئياً.

أمَّا سر الشكر فيعمل على امتداد المثال والاتحاد الكامل بالمسيح. اتحاد الإنسان بالمسيح، الحاصل بواسطة هذا السر، يشكل ذروة التعبير وملخصه عن محبة الله لنا. يقول بالماس مرتكزاً على موعظة قديمة قيلت

باللغة الدارجة: إن المحبة تفرض تشابه الأشخاص المحبوبين: (كل محبة حاصلة بالمحبة لها كمالُها. أما المبدأ فهو (التشابه). نجد مِثْلَ هذا المبدأ عند هوميروس وأفلاطون وأرسطو.

حسب العهد القديم خُلِقَ الإنسانُ منذ البدء (على صورة الله ومثاله). وقد أعاد تجسدُ كلمةِ الله الصورةَ والرباط اللذين تشوّها، إلى ارتباطهما بالله، وإعادة الرباط بين الله والإنسان تركزت على القربى القائمة بينهما منذ البدء. كانت القربى شديدة بحيث أمكن توحيدها في أقنوم واحد، كما يقول بالماس.

الارتباط الحاصل بالمسيح بين الإنسان والله أُلِّف بصورة خارقة كل علاقة وقربى بشريتين. وباتخاذ كلمة الله جسداً ودماً صار أخاً للبشر، لا بل صار صديقاً لنا، لأنه اشترانا من العبودية وجعلنا شركاء ومالكين لأسراره. المسيح ذاته قال لتلامذته: (أنه لا يدعوهم عبيداً بعد لأن العبد لا يعرف ما يصنعه سيده، بل يدعوهم أصدقاء لأنه عرّفهم كل شيء سمعه من أبيه). المسيح هو أب أيضاً وأم للبشر لأنه يلدهم بالمعمودية ويغذيهم كأطفال رضّع لا بدمه بدلاً من الحليب فحسب، بل بجسده وروحه. بارتباطه بسر الشكر الإلهي مع

المؤمنين بجسد واحد يصبح المسيح عريساً للبشر. إن تشبيه محبة الله للبشر بالمحبة الزوجية كان معروفاً ومنتشراً عند كتبة العهد القديم، وخصوصاً عند لاهوتيي الكنيسة المستيكيين «: mystiques صوفيون».

إن بالماس يعتبر المحبة الزوجية أسمى الشكر الإلهي. في الزواج التصاق جسدين بجسد واحد لا في روح واحد، أما في سر الشكر فالتصاق لا ينحصر في الجسد بل يتعدى إلى الروح لنصير معه روحاً واحداً. يا للشركة المتعددة الأشكال التي لاتحد! لقد صار المسيح أخاً لنا، فناولنا جسداً ودماً وجعلنا أصدقاء مقربين بإعطائه لنا هذه الأسرار وربطنا ونسقّنا بالمناولة كما يرتبط العريس بالعروس، وصار معنا جسداً واحداً وكذلك صار لنا أباً بمعموديته الإلهية وأرضعنا من الأثداء الأليفة كما ترضع الأم الحنون أطفالها.

الإتحاد في المسيح الحاصل بسر الشكر الإلهي ليس إتحاداً شبيهاً بوحدة كلمة الله مع الطبيعة البشرية. إنه ليس إتحاداً أخلاقياً فقط. مع أن المسيح يتحد حقيقياً مع كل إنسانٍ يتقدم بإيمان لهذا السر إتحاداً لا ينحصرُ في دائرة الأخلاق، إلاّ أنه لا يشكل معه أقنوماً واحداً كما حدث في وحدة كلمة الله مع الجسد المتخذ. هذا الاتحاد السري هو اتحاد حقيقي مع النعمة المؤلهة ومع فعل المسيح، لهذا يبقى المسيح دائماً واحداً (كذي أقنوم دائم لا يتجزأ). بينما الذين هم على (شكل المسيح) كثيرون. إن أكنديونس بعكس بالماس يقول: (الإنسان بالمناولة الإلهية يشترك بالطبيعة الإلهية. من يعلّم أن الذين يتناولون الأسرار الإلهية لا يشتركون في الطبيعة الإلهية يقاوم رأي الرسول بطرس وكل الآباء).

الموقف الذي يتخذه أكنديونس موقف خاطئ مبني على ارتكاز خاطئ وعلى فهم خاطئ للكتاب وللتعليم الآبائي، لهذا جاء يضادّ بجلاءٍ العلم المسيحي الأرثوذكسي. وهذا التضاد مرتبط بموضوع الشركة في الله وعدم الشركة برمته. باشتراك الإنسان في سر الشكر الإلهي يتحد مع جسد المسيح المؤله ويصير شريكاً في عدم الفساد والحياة الأزلية. وهكذا بالسر هذا يصبح الإنسان جسداً واحداً مع المسيح.

إن هذه المعية الجسدية ليست نتاجاً لنتيجة آلية بل هدية تقدمها نعمة الله، فيتقبّلها الإنسان بالروح شخصياً وبحرية. وعلى أساس هذا الاعتبار الشكري علينا أن ندرك العبارات: (الجسد الواحد مع المسيح) في مؤلفات أثناسيوس الكبير وغريغوريوس النيسسي، أو العبارة: (الجسد الواحد والدم الواحد) في المسيح في تعليم كيرلس الأورشليمي.

إن غريغوريوس أكنديونس يُرْجعنا إلى أثناسيوس ويستعمل: (الجسد الواحد)، عندما يتكلم عن المسيحيين الذين (كجسد واحد مع المسيح) سيدخلون إلى المجد السماوي. (إن الاشتراك في جسد ودم المسيح هو اشتراك في جسده المخلوق وطبيعته الغير المخلوقة) (أكنديونس). أما في نظر بالماس فإن الاشتراك في الأسرار المقدسة هو وحدة مع طبيعة كلمة الله البشرية التي باتحادها أقنومياً مع الأقنوم الثاني في الثالوث الأقدس تألهت وصارت نبعاً للتأله البشري.

المؤمن باتحاده مع المسيح يتحول إلى هيكل الألوهة المثلثة. كما أن كمال الألوهة يقطن في جسد المسيح، كذلك الثالوث الأقدس يقطن في الذين صاروا معه جسداً واحداً. (يا للعجب الذي لا تَطَالُهُ مغالاة! حتى هذه الكيانات البشرية تتحد. كل واحدٍ من المؤمنين يدمج ذاته بمناولته الجسد المقدم ليصير معه جسداً واحداً وهيكلاً لكل الألوهية). إن نقولا

كاباسيلاس نمّى فيما بعد التعليم عن الحياة في المسيح بمناولة الإنسان للأسرار وبصيرورته مشتركاً مع المسيح بجسده.

دمج الوجود البشري المجدد بالمعمودية بالجسد المؤلّه والمؤلِّه للمسيح يحوي، كما سبق وقلنا، الأساس اللاهوتي لتعليم بالماس عن الرؤية المستيكية للنور الغير المخلوق، فكما أن جسد المسيح الإلهي عند تجلّيه أنار تلامذته خارجياً، إذ كان بعد لم يدخل إلى أجسام الشر، فإنه الآن باندماجه وبوجوده في داخلهم ينير أرواحهم داخلياً «راجع نهاية الملحق».

سرُّ الشكر يحوي، في نظر بالماس، معنى ورائياً عميقاً. بتناول الإنسان للأسرار الطاهرة ينال ختم شركة المسيح الغير المسبور غورها في الجيل الآتي. ملكوت الله يتحقق منذ الحياة الحاضرة. ملكوت الله هو ملك للمؤمن. المؤمن فيه يعيشه وهو في هذه الحياة الحاضرة. إنه مواطن في الحياة الجديدة والحياة المقبلة. ملكوت الله كشركة مع البشر يتحقق بواسطة سر الشكر.

ملكوت الجيل المقبل هو الشكل الكامل للعلاقة بين المؤمنين والمسيح روحياً. هذا الطابع الورائي لسر الشكر الإلهي المعروف في اللاهوت الآبائي له معناه في تعليم بالماس عن التأله الإنساني. تأليه الإنسان لا يشكل حدثاً استقبالياً فحسب بل هو حقيقة حية للحياة الحاضرة. نعمة المسيح الغير المخلوقة المؤلِّهة التي تجعل جسد الإنسان في حالة من الطوعية مع جسد مجده تنزرع منذ الحياة الحاضرة في الإنسان وتعمل على تألُّهه.

بالشركة الإلهية يدخل المسيح إلى أعماق الوجود البشري ليقدم نعمته المؤلِّهة. وهذا يخلق في الإنسان المؤمن الضرورة لينقي ذاته كما يجب، ما دام يتأهب للشركة في السر العظيم. بالنقد الذاتي تتحقق التنقية، وبالتوبة والاعتراف يصل المؤمن إلى ما يبتغيه. استناداً إلى أقوال بولس، يقول بالماس: (على المؤمن أن يمتحن نفسه قبل أن يدخل إلى هذا السر وألاّ يتناول بدون استحقاق.

مهما تعب الإنسان لا يستطيع أن يجعل نفسه الغير المستحقة مستحقة موهبة المسيح العظيمة. بالتوبة لا يتحول الإنسان فعلاً بل يتقدم إلى الله الذي يجعل الغير المستحقين مستحقين). على المسيحي أن يتقدم إلى هذا السر بإيمان عميق ليستأهل نعمة الله. بما أن سر الشكر هو سر روحي، لذلك يجب أن ينظر إليه روحياً. خبز سر الشكر هو نوع من الحجاب يخفي الألوهية. لذلك على المؤمن أن يدخل إلى مضمون داخل السر بالإيمان وألاّ ينحصر في رؤية شكله الخارجي.

اهتمام المسيحي لا يجب أن ينحصر في استعداده للمناولة الإلهية. عليه أن يتجاوز المناولة ويوسع أفق مداها. يجب أن تجد النعمة المؤلهة تعبيرها في حياة المؤمن. بقبول الإنسان للمسيح في داخله يجعله سيد حياته وعلى هذا الأساس يجب أن ينسق أعماله وأقواله وأفكاره وفقاً لإرادة ذلك.

يشدد آباء الكنيسة على واجبات المؤمن هذه. يصل الذهبي الفم إلى الدعوة إلى الصيام حتى بعد المناولة، أما بالماس فيحذّر

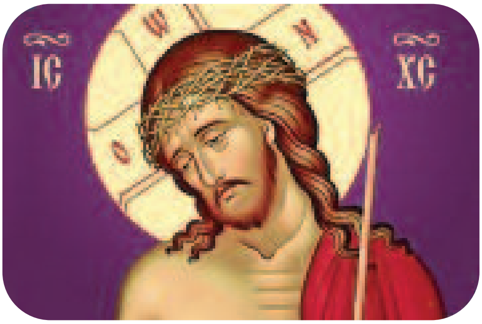

أيقونة مسيح السلام (المصالحة)

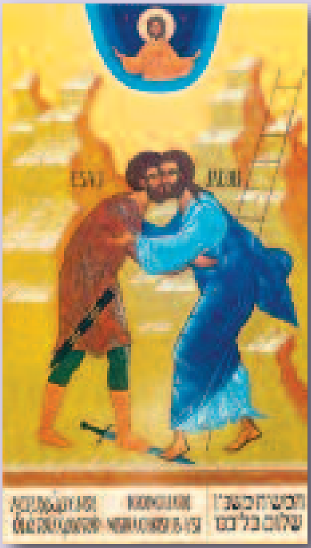

هذه الايقونة كتبت
في دير القديس يوحنا
في الصحراء ، قرب
القدس . حاليا موجودة في امانة السر
الدولية للسلام في بروكسل، بلجيكا .
القسم العلوي : يظهر المصالحة بين يعقوب و
عيسو محاطين بالقديسين , مريم المجدلية ،فرنسيس
الاسيزي، بوريس وفيليب الاخوين من روسيا ، وصوفيا
وبناتها الثلاث، واستفانوس الشهيد . القسم السفلي :
شخصيات من الكتاب المقدس : اسحاق وسارة،
هاجر واسماعيل ، المراة السامرية
ويسوع ، المراة الكنعانية .
في الوسط : صلاة
الرب يسوع المسيح

المصالحة

«الأب باسيليوس محفوظ»

نعيش اليوم في عالم يسوده العداء والحسد وساد عليه.فأصبحت الخلافات شغل الشعوب الشاغل،وواقع تعيشه المجتمعات، وتعاني منه معظم العائلات. فالسلام أمسى مجرد أنشودة يتغنى بها الجميع.إما الوفاق والسلام فتوارى بعيدا في عالم الأحلام، وإذا نظرنا الى واقع حياة الإنسان، كفرد أو جماعة، نرى الخلافات قائمة في البيت الواحد، لتمتد حتى مع الأصدقاء لنصل الى حروب مع الدول ... والكل يسأل ويطالب بالعدالة،وفي اعتقاده انه على الصواب،لأنه يحاول أن يحيا ميزان العدالة.. او شريعة حمورابي وموسى.

يقول الرسول الإلهي بولس:«لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء، بل أعطوا مكانا للغضب»، فقد ورد في الكتاب المقدس: « قال الرب: لي الانتقام وأنا الذي يجازي» (رومية ١٢: ١٩). أليس الانتقام والجزاء الذي يتكلم عنهما الرب هو العدل الإلهي أي حب وغفران ومصالحة..بينما جزاء الإنسان هو الانتقام وبطريقة شرسة وشريرة ...

في هذا الضجيج والتخبط بشتى أنواع النزاعات والخلافات، يسمع صوت رقيق، يحمل في طياته موجات من الأمل،فيعطي للعالم المظلم شعاعات من النور،حاملا إليه رسالة الخلاص إلا وهي المصالحة،مصالحة الإنسان مع ربه ومصالحة الإنسان مع أخيه الإنسان ومع الخليقة .

إذا دخلنا الى عمق الإنسان لكشفنا توقه إلى المصالحة مع ذاته ومع ربه وأخيه الإنسان، لان المصالحة تجعله إنسانا وأخا حقيقيا لأخيه الإنسان .غير ان الكتاب المقدس لا يعطينا او يقدم لنا صورة عن المصالحة بشكل سهل او بسيط ، فمن طلب

المصالحة كان لا بد له ان يحصل عليها بعد منازعات وخلافات التي تمر في حياة الإنسان.مثلا الصراع والخلاف بين قايين وأخيه هابيل.

هذين الأخوين الأولين اختلفا الواحد عن الآخر،ليس بالاسم فقط، اسم قاين يشير الى ان الرب هو سيد الحياة فبهذا الاسم إشارة الى ارتباط الحياة بخالق الحياة.اما اسم هابيل يعني الهباء والدخان يعني هذا ان هابيل لا يدوم، بل بالمهنة وبعلاقتهما مع الله وأيضا بسبب الحسد الذي يقود الأخوين الى التقاتل .

مما جعل قاين يقتل أخاه:« فلما كانا في الحقل وثب قاين على هابيل أخيه فقتله» (تكوين ٤: ٨). إذا عملية القتل سريعة وبدون كلام وثب، قتل. عندها يطرح الله على قاين سؤالا مباشرة اين هابيل اخوك (تكوين٤:٩).

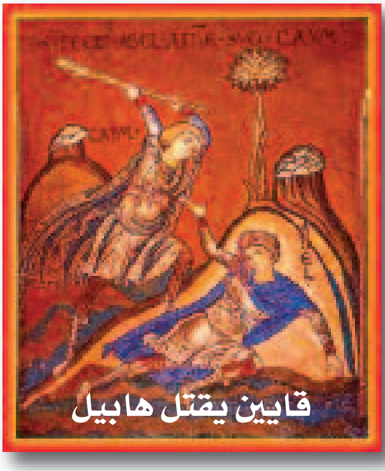

قايين يقتل هابيل

أمام هذا السؤال هناك موقف يأخذه الإنسان أما ان يعترف بخطيئته ام ينكرها. يختار قاين الكذب ويرفض هذه المسؤولية بالرغم انه يعرف أين أخوه،رفض قاين ان يكون أخا وحارسا لأخيه. ''أحارسا لأخي انا''.

من الصعب على الإنسان ان يفهم ان إحدى الطرق التشبه بالله والاقتراب منه هو ان يكون الإنسان حارسا لأخيه الإنسان. قتل قاين لأخيه هابيل،جعلت العلاقة مشوهة بين الإنسان والله وبين الإنسان وأخيه الإنسان،لان القتل هو مساس بأقداس المقدسات، وعلى قاين ان يبتعدعن الله لأنه أساء المعاملة مع الله،وبالتالي انفصل قاين عن الله فأصبح بعزلة موحشة بحيث لا يستطيع ان يتحمل عبء الخطية،فطلب من الله ان يكون حارسا له:« عقابي اشد من ان يطاق .. ومن وجهك استتر وأكون تائها شاردا، فيكون ان كل من يجدني يقتلني'' (تكوين٤: ١٣ - ١٤) .

إلا أن الله سمع نداءه وحامه وهددا كل من يحاول قتله وجاعلا عليه علامة تحرسه من انتقام، وفي ذلك تعبيرعن رحمة الله اللامتناهيةعلى قاين:« لذلك كل من قتل قاين،فسبعة أضعاف يؤخذ بثأره منه'' (تكوين ٤:١٥).

هناك أيضا صورة أخرى عن الصراع والنزاع والمصالحة في الكتاب المقدس وهي قصة الخلاف الأخوين عيسو ويعقوب

اللذان وصلا في أخر المطاف إلى المصالحة.بعد أن العدواة فصلت بينهما وجعلت كل واحد منهم يسعى في سبيل قتل الآخر.:« فبادر عيسو إلى لقائه وعانقه وألقى بنفسه على عنقه وقبله وبكيا'' (كوين ٣٣: ٤).لقد نال يعقوب رضى عيسو الذي تحول هو أيضا إلى إنسان جديد.يتعانق الأخوان في سلام عميق حيث خطاب القلب يستبق خطاب اللسان . لا ننسى صرخة أيوب الشهيرة متسائلا:« ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا ''. ثم ردَدت صدى هذه الصرخة أجيال وأجيال دونما جواب،الى ان تمَ الزمان، حين أرسل الله ابنه ليضع يده على كلينا «ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله بالصليب قاتلا العداوة به» (افسس٢:١٦).

غير ان الله اعدَ البشر لإتمام المصالحة التامة مع ذاته بإظهاره عفوه المتكرر لهم . فكشف بذلك انه «اله الرحمة والرأفة» (خروج ٦:٣٤) الذي تنازل من تلقاء ذاته.فعرض الله المصالحةمع شعبه من خلال الطقوس التطهيرية وشرائع العبادية الموسوية التي كانت تهدف في النهاية الى مصالحة الإنسان مع الله.ومع ذلك لن تتم المغفرة التامة لانهم كانوا ينظرون الأفضل فجاء يسوع المسيح الذي أتم المصالحة الحقيقية الكاملة والنهائية على الصليب. (افسس٢ : ١٦)

فإذا أردنا ان نعرف في كلمة واحدة أداة المصالحة التي صالحهما (الاثنين) المسيح بها فهي الصليب،الذي الغي به الناموس وهدم العداوة،فصار اليهود كالأمم في المسيح.وبهذا يكون المسيح قد أكمل خلقة الإنسان الجديد في جسده إنسانا واحدا صانعا سلاما . وبالتالي يكون الصليب قد صالح الاثنين مع الله في جسد واحد.وهكذا حينما نبلغ المصالحة،يكون المسيح قد أكمل مصالحة العالم لله في وحدة نموذجية تحمل أصعب مصالحة،ويكون الله قد أكمل جمع كل شيء في المسيح،في جسد واحد .

وهكذا الرسول الإلهي بولس قد أكمل نسيج المصالحة الثنائية،سداة ولحمة،يهودا مع أمم ، الذين كانا يمثلان العالم آنئذ، ثم مصالحة هذا الواحد المتحد بالله.من هنا نفهم انه يستحيل ان يبقى الله في حالة عداوة للإنسان مهما غالى الإنسان في عداوته لله، فايجابية الله أكيد ستبلغ هدفها للمصالحة وتتخطى كل سلبيات الإنسان .

فان العداوة بالنسبة لله تنصب على الخطية وبالتالي على الخاطئ،أما المصالحة فهي تنحصر في الخاطئ فقط عندما يخلص من خطيئته،لأنه لا تصالح مع الخطية من جهة الله. لهذا تمتنع المصالحة عن الخاطئ طالما خطيئته باقية.لذلك،فالمصالحة يلزم ان تكون متبادلةعن حقيقة واحتياج من جهة

الإنسان،عن رؤية شافية لخطورة بقاء الخطية مستترة وراء الإحساس الكاذب بالمصالحة، لئلا يعيش الإنسان في حالة خديعة لا يستيقظ منها الا بعد فوات الأوان ويكون هذا منتهى قصد العدو.

المبادرة للمصالحة جاءت من الله وجل الخليقة كلها،والتي يمثلها الإنسان على الأرض. وقد هيأ لله لهذه المصالحة المبادرة الفعالية الشاملة، بان جعل في المسيح كل ملء الكيان الإلهي مع كل النعمة والقوة ليكون (الإنسان) الذي سبق في آدم ان جلب الغضب والعداوة بالخطية على الإنسان والخليقة، ليكون الإنسان ايضا (الإنسان في يسوع المسيح) هو الذي يرفع حالة الغضب والعداوة،يرفع سببها الوحيد وهو الخطية،وذلك بقبول حكم الموت الواقع على الإنسان، ليتبرأ إنسان يسوع المسيح ومعه الخليقة ويدخل الكل في حالة مصالحة مع الله .

وهنا المسيح المصالح للكل،يدخل بصفته الخالق للكل والوسيط بين الله والإنسان. المسيح لم يصالح الله والإنسان والعالم كطرف ثالث بين الله والإنسان، بل انه ابن الله والإنسان معا, لذلك صالح الطرفين معا في نفسه وبدمه.

صالح الله بالإنسان وصالح الإنسان بالله وبقي مصالحا كما هو عنصر مصالحة فعالا،ليس بموته وبدمه فقط تمت المصالحة بل بقيامته وحياته استمرت وتستمر بل وترقَى لتنتقل من مصالحة الى خص ابدي.ليظل المسيح مصدر تسبيح وتمجيد ومجد للآب بواسطة الإنسان « لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه»(رومية٥: ١٠).

يؤكد ويوضع الرسول الإلهي بولس في رسالته الثانية إلى كورنثوس (٥: ١٨-٢٠) ان كل علاقة الإنسان الجديدة بالله لم تأت من تسلسل بشري ولا نبوي،حتى يكون للإنسان ضلع فيها،بل يؤكد ان كل ما تم من مصالحة جاء مباشرة من الله عن طريق المسيح وبواسطته.لذا صارت الخليقة كلها خليقة جديدة متساوية في الجدَة،وكل العتيق الذي من العهد القديم انتهى بكل مواريثه المتسلسلة.لذلك فلا عذر لنا البتة ان كنا لا نصالح الآخرين مهما كان السبب.إن كنت في عداء مع أي شخص كان، ولأي سبب كان، تذكر ان، مسيحيتك، هي عبر العصور والأزمان، ديانة المصالحة.

سر التوبة والمصالحة عبر التاريخ

«فادي أسود»

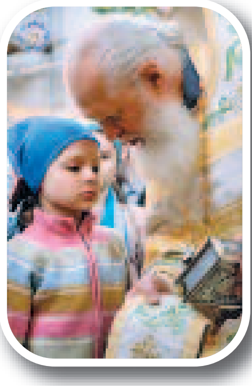

إن تاريخ ممارسة الكنيسة لهذا السر فيه شيء من التنوّع، فلقد مارسته مختلف الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، وحتى البروتستانتية، بأساليب عديدة على مر العصور، كما مارسته الكنيسة الواحدة بطرق مختلفة من عصر لآخر. لقد تطوّر سر المصالحة بشكل تدريجي وخضع لتغييرات من حيث الممارسات لا نشاهدها في أي سر آخر. وإن كان السيد المسيح قد أسس هذا السر بقوله لتلاميذه: «من غفرتم خطاياهم تغفر لهم، ومن أمسكتم خطاياهم أمسكت عنهم» (يو ٢٠ : ٢٣)، إلا أنه لم يتفوّه بكلمة واحدة عن طريقة ممارسته تاركاً للكنيسة مهمة البتّ في شكله وأسلوبه. عندما نطلع على تاريخ الكنيسة المتعلق بهذا السر وطرق ممارسته نستطيع تمييز المراحل التالية:

من عهد الرسل حتى بداية القرن الثالث:

قال السيد المسيح لبطرس: «سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فما ربطت في الأرض ربط في السموات، وما حللت في الأرض حلّ في السموات» (مت ١٦ : ١٩). السؤال الذي يطرح نفسه في هذه المرحلة هو: هل كان الرسل يمارسون سر المصالحة على النحو الذي يمارس اليوم؟ إن معظم نصوص العهد الجديد التي نعتمد عليها لإثبات أساس سر المصالحة قد لا تتعلق مباشرةً به إنما بسر العماد الذي يتطلب التوبة من طرف الإنسان ويمنح المغفرة من لدن الله. فقد فهم التقليد القديم قول يسوع السابق على أنه يخصّ سر العماد الذي يحلّ من الخطايا، أوغسطينس (القرن الرابع) تردّد فيما بعد في فهم هذه الآيات بين سر العماد وسر التوبة، أما مجمع تريدانت فقد بت نهائياً أمر تأسيس سر التوبة على أنه يستند إلى هذه الآيات.

ورد في رسالة القديس يعقوب: «ليعترف بعضكم لبعض بخطاياه» (يع ٥ : ١٦).. فهل هذه العبارة تصرّح بممارسة سر الإعتراف في عهد الرسل؟ حسب ما أشار يسوع في ذلك الوقت كان إذا أخطأ أخ نحو أخيه يذهب المؤمنون إليه ليمنحوه نصيحة أخوية فإذا لم يقبل عرضوا الموضوع على الرسل والتلاميذ من بعدهم، وهذا ما يتعلق بالخطايا الخاصة. أما بالنسبة للخطايا العامة فقد تحددت تدريجياً بـ:

أولاً- خطيئة الكفر: كالإرتداد والهرطقة ومزاولة السحر.

ثانياً - خطيئة القتل: وتتضمن قتل الإنسان لأخيه، الإجهاض، السرقات، التسبب في الأذى..

ثالثاً - خطيئة الزنى: وكل ما يتعلق بالجنس.

كانت جماعة الكنيسة تربط الخطيئة ثم تحل الخاطئ، وهاتين الكلمتين لا تعنيان ما نفهمه اليوم من رفض الكنيسة لمنح الحل أو قبوله ،

فهما من التعابير الرابينية (اليهوديّة) الشائعة في أيام المسيح والرسل وتعنيان الحرمان من الجماعة.

فقد كان الخاطئ يحرم من ممارسة الحياة المسيحية الجماعية وبصفة خاصة الافخارستيا، وعند اجتماع المؤمنين لكسر الخبز كان الخاطئ يلبس ثوب التوبة (المسوح) ويغطي نفسه بالرماد ويركع أمام المؤمنين طالباً رحمتهم بالدموع والتنهدات. وخلال تلك الفترة، التي كانت من الممكن أن تكون طويلة وليست كما هي الحال في أيامنا، يقوم الخاطئ بأعمال تقوية مضنية كالصوم والصلاة والصدقة، وكانت الكنيسة تتشفع لله من أجل عضوها المريض. وبعد ذلك تتم المصالحة مع الجماعة بأن يصعد الأسقف التائب إلى صدر الكنيسة أمام جميع المؤمنين المجتمعين لكسر الخبز.

كان سر التوبة يمنح مرة واحدة في الحياة ونادراً جداً مرتين ولذلك كان يسمى ''العماد الثاني''. ولم يكن ينله الشباب وإن كانوا في حالة الخطيئة المميتة حتى لا تضطر الكنيسة لأن تمنحهم إياه مرة ثانية، فلم ينله إلا الشيوخ والمترملون والمرضى على فراش الموت. خاصةً وان ممارسة هذا السر كانت تفرض أحياناً أعمالاً تكفيرية مدى الحياة كالانقطاع عن العلاقات الزوجية وعدم مزاولة بعض المهن كتجارة الأسلحة والكهنوت ...والمراجع التي نستند إليها لمعرفة ذلك فهي:

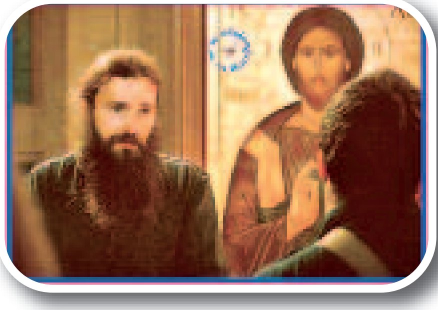

ترتوليانوس في مؤلفه ''عن التوبة'' و كتاب ''الراعي'' لهرماس، الذي يورد ما يلي: ''ثمة يوم محدد للتوبة فمن فاته هذا اليوم لن يلق مناسبة أخرى للتوبة، ومن خطئ بعد هذا اليوم لن يتلق الغفران''.

في النصف الأول من القرن الثالث:

ظهر في بداية هذا القرن سؤال هام حير ضمير الكنيسة: هل يمكن الصفح عن جميع الخطايا، أم أن هنالك خطايا لا تحل؟ وهل يعود جميع الخطأة إلى الكنيسة أم يظل بعضهم مربوطين خارجها طوال حيا تهم؟هذا السؤال لم يكن عقائدياً بمعنى: هل يحق للكنيسة أن تحلّ بعض الخطايا فقط، بل كان رعوياً، بمعنى هل من الملائم للخاطئ أن تحل خطيئته؟.لاشك أن هذه التساؤلات نشأت على أرضية الاضطهادات الدامية التي واجهت الكنيسة في نشأتها، وخاصةً الاضطهادات الثلاث الأخيرة التي اتسمت بالعنف فأنكر بعض المؤمنين إيمانهم ثم ارتدوا إلى الكنيسة بعدها. فكيف تتصرف الكنيسة تجاههم؟ إزاء ذلك برز اتجاهان متعاكسان احدهما متشدد والآخر متساهل:

كوبريانوس أسقف قرطاجة في شمال أفريقيا كان متشدداً بعد الاضطهاد الأول، لكنه لان فيما بعد مغيراً موقفه بشكل جذري بعد الاضطهاد الثاني. وتصرف بابوات روما تصرفاً رعوياً مماثلاً بمسامحة ورحمة العائدين وتفهّم ضعفهم البشري. أما ترتليانوس فقد اعتبر ذلك تراخياً يحث المؤمنين على الوقوع في الخطايا لاسيما خطيئة الزنى. وكان هذا أيضاً رأي تيار المونتانية الذي انتمى إليه ترتليانوس في آخر حياته. من هنا نشأ خلاف بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية في النظرة إلى سر التوبة، فيقول كوبريانوس الذي يمثل نظرة الكنيسة الغربية أن مصالحة

الخاطئ مع الكنيسة تسبب الغفران من الله ، لذلك فإن أعمال التكفير هي بمثابة سبب غفران الخطيئة. أما أوريجانوس الذي يمثل رأي الكنيسة الشرقية لم يعتبر أن المصالحة مع الكنيسة تسبب الغفران من الله بل إن غفران الله يسبب المصالحة مع الكنيسة بمعنى أن أعمال التكفير هي شرط فقط للغفران تجلب المغفرة ولا تسببها.

من النصف الثاني من القرن الثالث إلى القرن السادس :

في هذه الفترة نشأ ما يسمى نظام ''التوبة العلنية'' الذي تميّز بالقسوة والتصلب. فقد بلغ زمن الربط في بعض الحالات عشرين سنة في مثل خطيئة القتل المتعمد. وكانت الكنيسة تذكّر المؤمنين بضرورة إشهار الخاطئين للسلطة الكنسية. وسبب ذلك أن المسيحية انتشرت في المدن ولم تعد الخطايا علنية ومعروفة لدى الجميع كما في جماعة المسيحيين الأوائل .

تبلور دور الأسقف تدريجياً في عملية الربط والحل حتى احتكر السر تماماً. فعندما كان الخاطئ يدخل في مرحلة التوبة العلنية كان يجلس مع الأسقف في انفراد بشكل خاص يعتبره المؤرخون نواة الاعتراف الحالي. وكان أوغسطينس (٣٤٥ - ٤٣٠) قد سمح بالاعتراف الفردي الخاص في بعض الحالات كالزنى والقتل مخافة أن يتعرض الخاطئ للأذى من قبل السلطات المدنية. وفي منتصف القرن الخامس أمر لاون بابا روما بأن ينحصر الإقرار بالخطايا في شخص الأسقف احتراماً للخاطئين وحفاظاً على سرية ما اقترفوه. بعدها كان الخاطئ يدخل في مرحلة التكفير العلني التي يحدد الأسقف

مدتها حسب جسامة الخطيئة.

وفي الصوم الأربعيني يوم خميس الأسرار أو سبت النور كان يتم اللقاء الثاني بين الخاطئ والأسقف الذي كان يضع يده على الخاطئ التائب أو يعانقه علامة الحل الكنسي فتفرح الجماعة الكنسية بعودة الخاطئ إلى حضن الكنيسة وتتناول معه جسد ودم المسيح تعبيراً عن الفرح والوحدة .ومع تقدم الوقت كان لابد من إيجاد نظام آخر غير التوبة العلنية الذي يؤخذ عليه ما يلي :

رعوياً: أصبح النظام متشدداً وقاسياً فابتعد عنه الخاطئون خوفاً منه.روحياً: مع الوقت فترت همة المؤمنين وخمد حماسهم لمجيء المسيح الثاني فكثرت الخطايا.اجتماعياً: مع انتشار المسيحية في المدن الكبرى لم يعد ممكناً أن يحيا التائبون التوبة العلنية ولم يعد مستحباً إشهار الخاطئين خوفاً من تدخل السلطات المدنية .ثقافياً: مع فتور الحياة الروحية تركز الاهتمام حول الخطايا الخُلقية، فظهرت لوائح عن الخطايا أتت إلى الغرب من الشرق لاتناسب عقلية الغرب، إذ كان الشرق يونانياً بدأت فيه الحياة الرهبانية والغرب كان رومانياً تسوده الروح العلمانية .عقائدياً: استحوذت أعمال التكفير على الأهمية القصوى في نظام التوبة العلنية ، ففقدت مجانية الخلاص والمغفرة دورها الأمر الذي طرح تساؤل: ما جوهر سر التوبة؟.هل يكمن في غفران الله للخطايا وعودة الخاطئ إلى الكنيسة أم في انجاز الأعمال التكفيرية من قبل الخاطئ؟..

عصر الرهبنة (القرن السادس):

بعد نشأة الرهبنات في الشرق على يد القديس باسيليوس الكبير (٢٧٩ - ٣٢٩) انتشر نظام التوبة

الخاصة ففي الأديرة كان المرشد الروحي راهباً يسكنه الروح القدس وكان يسمى الروحاني وبشكل تدريجي امتزج الارشاد الروحي بسر المصالحة حتى استقر في القرون السابع والثامن والتاسع ، وظهرت ''كتب التوبة'' البيزنطية التي ترشد إلى ممارسة سر التوبة. وقد خالف الأقباط هذا النظام وآثرو التوبة العلنية حتى القرن الثاني عشر عندما وافق عليه نهائياً البطريرك ميخائيل الأتريبي بتأثير من الكنيسة السريانية التي كانت قد اعتمدت هذا النظام .

أما في الغرب فقد ترهبن كاهن إيرلندي الجنسية اسمه باتريك (وهو شفيع إيرلندا) في أحد أديرة فرنسا ثم سيم أسقفاً وعاد إلى إيرلندا وأدخل في أديرته نظام الارشاد الروحي لدى راهب شيخ كان الرهبان يسردون له تجاربهم وسقطاتهم. لم يكن هذا الشيخ كاهناً ولكن سرعان ما حول باتريك الشيوخ المرشدين إلى كهنة يتقبلون الإقرار بالخطايا من الرهبان ويحلونها .ثم انتشر هذا النظام في الغرب بما فيه روما باستثناء اسبانيا (التي اعتمدت هذا النظام ابتداءً من القرن السابع بتأثير من الراهب كولومبانوس) وأخذ نظام التوبة العلنية بالتلاشي تدريجياً.

القرون الوسطى :

في نهاية القرن الثامن سعى شارلمان إلى توحيد أوروبا ونشر النظم الرومانية ومنها نظام التوبة العلنية الذي كان قائماً آنذاك فتواجد النظامان معاً حسب المبدأ: توبة علنية لخطيئة علنية، وتوبة خاصة لخطيئة خاصة. إلا أن نظام التوبة الخاصة فرض نفسه في النهاية وقد بدأ بإقرار خاص بالخطايا وحل علني داخل إطار ليتورجي يترأسه الأسقف وظل كذلك حتى منتصف القرن العاشر. وأصبح التكفير يتبع الحل ولا يسبقه كما في التوبة العلنية .وهنا قد يقع

نظام التوبة الخاصة في فخين :

أولاً: كثرة الإلحاح في الإقرار بالخطايا واهتمام الخاطئ وتركيزه على ما يجب أن يقر به للكاهن يكون على حساب توبته الحقيقية التي هي أساسية أكثر من الإقرار. لذلك نرى في الكنيسة البيزنطية أن هذا السر تسوده أجواء من انسحاق القلب من ألم الخطيئة والندم عليها والتوبة، فيشعر الخاطئ أنه شوّه صورة الله فيه وبالتالي يرغب في تغيير حياته والقداسة. لذلك تكثر في صلوات الاستغفار الشرقية معايير عامة أكثر منها خاصة: ''إذا خطئنا عمداً او سهواً، قولاً أو فعلاً، بجزع القلب أو صغر النفس بإرادة أو بغير إرادة ، بوعي أو بغير وعي''..

ثانياً: فقدان البعد الجماعي الكنسي ، وهنا حافظت الكنائس الشرقية على البعد الجماعي ففي قداس الكنيسة القبطية تذكر صلاة الحل قبل خدمة الكلمة (القراءات) بصلاة الحل للابن وصلاة حل الخدام، مما يتيح مشاركة الجماعة في الصلاة من أجل الخطأة. وكذلك في الطقس الأثيوبي والماروني يكون الحل في نهاية خدمة القرابين وقبل المناولة.نحن إذاً أمام نظامين متباينين لممارسة سر المصالحة اختبرتهما الكنيسة متتالين أو سوياً ولكل منهما ميزاته وعيوبه. ويحق لنا التساؤل: أليس من الممكن أن نختبر مزيجاً منهما مدمجاً ميزات كل منهما ومتجنباً عيوبهما ؟؟؟

موقف الاصلاح البروتستانتي والرد عليه :

كان لوثر يؤمن في بداية الأمر بسر التوبة ويؤيده ويمارسه شخصياً ويشجع المؤمنين على ممارسته معتبراً إياه ''تجديداً لسر المعمودية''. إلا أنه فيما بعد، طبّق كلام الإنجيل الخاص بالربط والحل بسر المعمودية لا بسر التوبة. فقد كان يؤيد الإقرار بالخطايا إنما لأي مؤمن وليس للكاهن بالذات لأن كل مؤمن يحمل بذور الكلمة،

والكلمة هي التي تدفع الخاطئ للتوبة، ومن ثم لا داعي إلى وساطة الكنيسة خاصةً وأن المسيح لم يؤسس فعل الإقرار للكاهن كما أن الكنيسة الأولى لم تألف الإقرار للكاهن .وبحسب رأيه، ليس الكاهن هو من يحلّ الخطايا بل المسيح، وما الكاهن سوى خادم يقرّ بأن الله قد غفر فعلاً خطيئة من يؤمن بأن الله غفرها وإن لم يكن تائباً توبة كاملة .

غير أن لوثر كان يؤمن أن الإقرار بالخطيئة المميتة أمر نافع ومفيد، إنما غير ضروري إذ أن الله يرحم ويغفر مباشرةً. أما الإقرار بالخطايا العرضية فلم يوافق عليه وكذلك لم يوافق على ضرورة نيل سر التوبة مرة واحدة في السنة على الأقل .وكان يقول أن جملة ''مغفورة لك خطاياك من لدن الله'' هي جملة إخبارية لا تعني الحل من الخطيئة.

ينطلق لوثر في تحليله للتوبة من الشريعة إلى الإنجيل ومن التوبة إلى الإيمان، بمعنى أن الشريعة تولد التوبة بالخوف، خوف الضمير أمام الله الديّان. أما الإنجيل فإنه يولد الإيمان الذي هو رد الإنسان على الله. وجميع الأعمال الذاتية كالإقرار والتكفير هي رياء وتبرير ذاتي ومجهود ذاتي فاشل. ولخذص مجمل نظرته بالآية: ''توبوا وآمنوا بالإنجيل''.. فالإيمان بالإنجيل هو الغاية القصوى. لقد وقف مجمع تريدانت ١٥٤٥ – ١٥٦٣ في وجه الإصلاح وردّ على مواقف كل من لوثر وكالفن وميلانكتون، عبر القرارات التالية :

القرار الأول: التوبة سر حقيقي أنشأه المسيح، الغرض منه غفران كل خطايا المعمدين .القرار الثاني: هنالك تمييز واضح بين سر المعمودية وسر التوبة في العهد الجديد.القرار الرابع: نص يوحنا ٢٠ : ٢٢ ، ٢٣ هو تأسيس لسر التوبة ولا يتعلق بالكرازة الإنجيلية كما يفهمها المصلحون. القرار التاسع : حل الكاهن هو كلام القاضي في محاكمة كما يقول كبريانوس وترتوليانوس وليس كلمة إخبارية كما يقول المصلحون .

من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر :في هذه الفترة دارت نقاشات لاهوتية حول ندم الخاطئ ميزت بين :التوبة الكاملة التي منبعها المحبة والانفتاح على الله، والتوبة الناقصة المبنية على الخوف والعوامل النفسية . تركز الاهتمام في بداية القرن العشرين على تواتر نيل سر المصالحة، ولهذا التواتر مزايا وعيوب :

المزايا :

سرياً: يحقق ثمار المعمودية من توبة مستمرة وخلاص ونمو في الحياة الجديدة.وجودياً: يجدد رغبة المؤمن الذي يخطئ لضعفه وفتوره بحياة أفضل .لاهوتيّاً: يبين وجه الله الرحيم الذي يساند الخاطئ يومياً بنعمته الفاعلة .

أما العيوب :

سرياً: يركز على الإقرار بالخطايا على حساب التوبة الحقيقية. وجودياً: علاقة الكاهن بالخاطئ تخلو من الحوار العميق الذي يشعر فيه كلا الطرفين بأنهما يقومان بعمل إلهي وإنساني معاً.إلهياً: يظهر فيه الله قاضياً دياناً أكثر منه إله رحمة وحنان. كنسياً : يفقد البعد الجماعي الكنسي لصالح البعد الفردي.

كيف ينبغي أن يستعدّ الانسان للاعتراف؟

مختارات من كتاب "دليل الاعتراف"

«القديس نيقوديموس الأثوسي»

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

ما هي التوبة؟

أخي الخاطئ، هذا هو الاستعداد الواجب اتّباعه قبل أن تتوب وتذهب إلى الاعتراف. اعرفْ أولاً أن التوبة، بحسب القديس يوحنا الدمشقي، هي العودة من الشيطان إلى الله، التي تتمّ بالألم والجهاد. وهكذا أنتَ أيضاً، أيها الحبيب، إذا رغبت بأن تتوب كما يليق، عليك أن ترفض الشيطان وأعماله وتعود إلى الله وإلى الحياة التي تليق به.

عليك أن تنبذ الخطيئة التي هي ضد الطبيعة، وتعود إلى الفضيلة التي هي بحسب الطبيعة. عليك أن تكره الشر كثيراً، حتى تقول مع داود: «أَبْغَضْتُ الإثم وَكرِهْتُه» (مزمور ١١٨: ١٦٣)،

وبدلاً عن ذلك، عليك أن تحبّ الخير ووصايا الرب كثيراً حتى تقول أيضاً مع داود: «أمّا شَريعتُكَ فَأَحْبَبْتُهَا». (الآية نفسها)، وأيضاً: «لأَجْلِ ذلِكَ أَحْبَبْتُ وَصَايَاكَ أَكْثَرَ مِنَ الذَّهَبِ وَالإِبْرِيزِ». (مزمور ١١٨: ١٢٧).

باختصار، الروح القدس يعلّمك بسيراخ الحكيم ما هي التوبة الحقيقية في قوله: "تُبْ إلى الرب وأقلِعْ عن الخطايا، تضرَّعْ أمام وجهه وأقلِلْ من العثرات. إرجعْ إلى العلي وأعرِضْ عن الظلم وأبغض القبيحة أشدّ بغض" (ابن سيراخ ١٧: ٢٥-٢٦).

مظاهر التوبة

اعرفْ ثانياً أن مظاهر التوبة هي ثلاثة: الندم، الاعتراف، والارتياح.

الندم:

الندم هو الأسف والحزن الكامل في القلب، وهما يكونان في الشخص الذي، بسبب الخطايا التي ارتكبها، خيّب الله وخالف ناموسه الإلهي. هذا الندم يأتي فقط على الكاملين ومَن هم أبناء الله، لأنّه ينشأ فقط من محبة الله. تماماً مثلما يتوب الولد فقط لأنه خيّب أباه، وليس لأنه سوف يُحرم من الميراث أو يُطرَد من المنزل الأبوي. في هذا الخصوص، يقول الذهبي الفم الإلهي: "تأوّه بعد أن أخطأتَ، ليس لأنّك سوف تُعاقَب (إذ ليس العقاب شيئاً)، بل لأنك أثِمتَ إلى سيدك، مَن هو كثير الكرم، وفائق اللطف، ويحبّك كثيراً ويتوق إلى خلاصك حتى أنّه بذل ابنه من أجلك. لهذا تأوّه".

الألم:

الألم مرتبط بالندم، الذي هو أيضاً حزن وأسى غير كامل في القلب، وهو يأتي ليس لأن الإنسان خالف الله بخطاياه، بل لأنّ هذا الإنسان قد حُرِم من النعمة الإلهية، خسر الملكوت وكسب الجحيم.

هذا الألم يكون لغير الكاملين، أي للأجراء والعبيد، لأنّه لا يصدر عن محبة الله، بل عن الخوف ومحبة الذات، تماماً مثلما يتأسّف الأجير لفقدانه أجرته ويتحسّر العبد خوفاً من تأديبات سيده. وهكذا أنتَ أيضاً، يا أخي الخاطئ، إذا أردتَ أن تكتسب هذا الندم والألم في قلبك، وبهما يكون ندمك مرضياً لله، عليك أن تفعل ما يلي.

اعترف لأبٍ روحي مختبر:

أولاً، فتّش حولك واعرفْ مَن هو الأب الروحي الأكثر خبرة، لأن باسيليوس الكبير يقول، كما أن الناس لا يظهرون أمراضهم وجراحهم الجسدية لأي طبيب كان، بل للأطباء أصحاب الخبرة الذين يعرفون كيف يداوونهم، كذلك أيضاً ينبغي كشف الخطايا، ليس لأي كان بل لأولئك القادرين على شفائها:

«في الاعتراف بالخطايا ينبغي اتّباع الطريقة نفسها كما في الكشف عن أمراض الجسد. كما أن الإنسان لا يكشف أمراض الجسد لكل الأطباء أو للمارّين صدفة، بل لأصحاب الخبرة في علاجهم، كذلك أيضاً ينبغي أن يكون الاعتراف بالخطايا أمام أولئك القادرين على معالجتها، كما هو مكتوب:

«فَيَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ الأَقْوِيَاءَ أَنْ نَحْتَمِلَ أَضْعَافَ الضُّعَفَاءِ'' (روما ١:١٥)، أي أن تحملوها باهتمامكم''.

كيف يفحص الإنسان ضميره؟

ثانياً، تماماً كما تجلس لتَعدّ مالك بعد صفقة ما، بالطريقة نفسها امضِ إلى مكان محدد، أيها الأخ، وقبل اسبوعين أو ثلاثة من ذهابك إلى الأب الروحي الذي وجدته، خاصة عند بداية كل من فترات الصوم الأربعة في السنة، اجلسْ في ذلك المكان الهادئ، احنِ رأسَك، امتحِن ضميرك، هذا ما يسمّيه فيلونَ اليهودي (الاسكندري): ''فحص الضمير''، وكنْ ''لا مدافعاً عن خطاياك بل قاضياً لها''، بحسب الطوباوي أوغسطين. تأمّل، مثل حزقيّا، في كل حياتك بحزن ومرارة في النفس: ''مُتَمَهِّلاً كُلَّ سِنِيَّ مِن أَجْلِ مَرَارَةِ نَفْسِي.'' (إشعياء ١٥:٣٨). تأمّل أيضًا كم أخطأتَ في الأعمال، والأقوال، والارتباط بالأفكار، بعد آخر اعتراف لك، عاداً الأشهر والأسابيع والأيام. تذكّرْ الأشخاص الذين أخطأتَ معهم والأماكن التي أخطأتَ فيها، وباجتهاد تأمّل في هذه الأشياء لكي تجد كلاً من خطاياك.

هكذا ينصح سيراخ الحكيم قائلاً من جهة: ''قبل القضاء افحص نفسك'' (ابن سيراخ ٢٠:١٨). ومن جهة أخرى، يقول غريغوريوس اللاهوتي: ''امتحنْ نفسك أكثر من قريبك. حساب الأعمال هو أهمّ من حساب المال. لأن المال يفسد بينما الأعمال تبقى''.

وتماماً، كما أن الصيادين لا يكتفون بمجرّد إيجاد وحش في الغابة، بل يسعون بكل الطرق إلى قتله، كذلك يا أخي، عليك ألاّ تكتفِ بفحص ضميرك وإيجاد خطاياك وحسّب، لأن هذا ينفعك قليلاً، بل جاهدْ بكل الطرق لقتل خطاياك بالحزن في قلبك، أي بالندم والألم. ولكي تكتسب الندم، افتكِرْ في كمْ اعتديت على الله بخطاياك. لكي تكتسب أيضاً الألم، فكِّرْ في كم اعتديت على نفسك بخطاياك.

طريق التوبة

نقلاً عن كتاب الملكوت الداخلي للأسقف كاليستوس وير

«توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات» (متى ٣, ٢, ٤, ١٧)

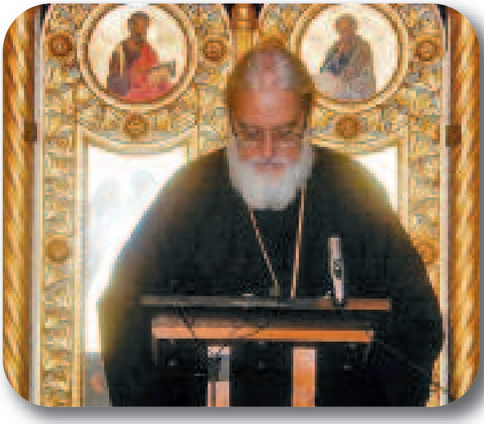

بهذه الكلمات عينها بدأ كل من يوحنا المعمدان وسيّدنا يسوع المسيح بشارته. فالتوبة هي نقطة انطلاق البشارة السارة: بدون التوبة لا يمكن أت توجد حياة جديدة أو خلاص أو دخول في ملكوت السماوات.

لو ألقينا نظرة على كتابات آباء الكنيسة القديسين لوجدنا أنفسنا أمام الحقيقة ذاتها التي تتكرر بإلحاح. فعندما سئل الأب ميليسيوس عما يفعله في الصحراء أجاب: ''إنني إنسان خاطئ ولقد جئت إلى هنا لكي أبكي على خطاياي''. ليست هذه التوبة مجرد مرحلة أو تمهيد لشيء آخر, بل هي تستمر مدى الحياة. وفيما كان القديس ساسين (صيصوي) ممدداً على فراش الموت, رآه تلاميذه الذين كانوا محيطين به يخاطب أحداً ما فسألوه ''مع من تتكلم يا أبانا؟'' أجابهم: ''ها هي الملائكة أتت لتحملني وإني أرجوها أن تدعني أتوب قليلاً بعد''.

فقال له الشيوخ: ''لا حاجة إلى أن تتوب يا أبانا'' فأجابهم: ''في الحقيقة لست متأكداً حتى من أنني بدأت أتوب''.

القديس مرقس الناسك (القرنان الخامس والسادس) يقول من جهته: ''إننا لا ندان لكثرة خطايانا بل لأننا لم نتب عنها... التوبة لا بداية لها ولا نهاية, إنها تستمر حتى الممات, وهذا يسري على الصغار والكبار على السواء''. يقول الأنبا إشعياء السياتي (القرنان الرابع - الخامس): ''لقد منحنا سيدنا يسوع المسيح التوبة حتى الرمق الأخير لعلمه أن خديعة العدو عظيمة جداً فإن لم تكن هناك توبة, لن يخلص أحد''.

ماذا تعني لنا, في الواقع, كلمة توبة؟ هذه الكلمة توحي لنا بشكل عام بالندم على الخطيئة والشعور بالذنب والتحسس للألم والرهبة أمام الجروح التي سبّبناها لقريبنا ولأنفسنا. لكن كل رؤية مماثلة تبقى ناقصة. إذا كان الألم والرهبة هما فعلاً عنصرين أساسيين للتوبة فإنهما ليسا التوبة بكلّيتها ولا البعد الأهم منها حتى. لكي نفهم بشكل أفضل المعنى العميق للتوبة لا بد لنا من العودة إلى الأصل اليوناني للكلمة وهو ''ميتانويا'' الذي يعني حرفياً '' تغيير النفس '' أي ليس فقط الندم على الماضي بل التحول الجذري لنظرتنا واكتساب طريقة جديدة لرؤية الله والآخر وأنفسنا. فعلى حد قول راعي هرماس (القرن الثاني) التوبة ''فعل حكمة عظيمة'' وليست أزمة وجدانية بالضرورة. فالتوبة ليست الندم على الذات والشفقة عليها بل هي تحول حياتنا إلى محور واحد هام هو

الثالوث القدوس أو مركزتها حول هذا المحور.

''نفس جديدة''، ''تحول''، ''مَركَزة''، هذا كله يدل على أن التوبة أمر إيجابي لا سلبي. فالتوبة هي ''بنت الرجاء والتخلي عن اليأس'' كما يقول القديس يوحنا السلمي. أن نتوب لا يعني أن ننظر إلى أسفل، باتجاه النواقص الموجودة فينا، بل إلى الأعلى باتجاه محبة الله، لا إلى الوراء، مع كل اللوم الذي نلقيه على أنفسنا، بل إلى الأمام وبكل ثقة. التوبة هي أن ننظر لا إلى ما لم نستطع أن نحقّقه أو نكوّنه، بل إلى ما يمكننا أن نحققه ونكونه بنعمة المسيح. يتجلى الطابع الايجابي للتوبة في كلمات النبي أشعياء (٩، ١) التي ترد في إنجيل متى مباشرة قبل بدء المسيح بدعوة الناس إلى التوبة: ''إنّ الشعب السالك في الظلمة قد أبصر نوراً عظيماً، والذين في الظلام أشرق عليهم النور''. العلاقة بين التوبة ومجيء النور العظيم هامة جداً.

ذلك أنه من المستحيل أن نرى خطايانا قبل رؤية نور المسيح. يشير إلى ذلك القديس ثيوفانس الحبيس (١٨١٥-١٨٩٤) بقوله: ''ما دامت الغرفة غارقة في الظلام فإننا لا نلاحظ قذارتها لكن إذا أضيئت بقوة نرى فيها حتى أصغر جبة غبار والأمر ذاته ينطبق على غرفة نفسنا فنظام الأشياء ليس هو أن نتوب أولاً ثم أن نعي المسيح لاحقاً بل نور المسيح الذي يدخل في حياتنا يجعلنا نفهم خطيئتنا الشخصة بشكل حقيقي''. يقول القديس يوحنا كرونشتادت (١٨٢٩-١٩٠٨): ''التوبة هي أن نعلم أن هناك كذبة في قلبنا''. لكنّنا لا نستطيع أن نكتشف وجود هذه الكذبة قبل أن يكون لدينا حس بالحقيقة. كثيرون هم الذين يشعرون بالحزن بسبب أفعالهم الماضية، لكنهم يقولون بائسين: ''لا أستطيع أن أسامح نفسي على ما فعلت''.

وبما أنهم غير قادرين على مسامحة أنفسهم فهم بالتالي غير قادرين على تصديق أن الله وأشخاصاً آخرين قد سامحوهم. هؤلاء الأشخاص على الرغم من عظم قلقهم لم يبدأو بالتوبة بعد ولم يبلغوا ''الحكمة العظيمة'' التي بواسطتها يعرف الإنسان أن المحبة هي المنتصرة، كما انهم لم يختبروا تغيير الذهن، الذي يرتكز على القول: الله قبِلني فالمطلوب مني الآن هو قبول الواقع التالي: أن الله قبِلني. هذا هو جوهر التوبة. إن خبرة التوبة تعاش بقوة خاصة في سر الاعتراف.

فمعنى هذا السر تعبر عنه بامتياز الوصية التالية التي يوجهها الكاهن إلى التائب بحسب الطقس الروسي: ''يا بنيَّ، إن المسيح موجود معنا بحال غير منظورة ليتقبل إعترافك. فلا تخجل، لا ترهب، ولا تُخف أي شيء بل أخبرني عن كل ما فعلته بدون أي تردد لكي تنال الحل من ربنا يسوع المسيح. فهذه أيقونته أمامنا، وأنا لست سوى شاهد لكي أشهد أمامه عن كل ما ستقوله لي. فإذا أخفيت عني شيئاً تكون خطيئتك مزدوجة. إحرص إذاً، بما أنك أتيت إلى الطبيب على ألا تغادره قبل أن تُشفى''. يجب عدم النظر إلى سر الاعتراف من المنطلق القانوني فقط، بل من المنطلق العلاجي أيضاً فالاعتراف هو قبل كل شيء سر شفاء. واللافت في هذا الصدد كون بعض التفاسير الليتورجية البيزنطية لا تعتبر سري الاعتراف ومسحة الزيت سرين معترفين بل تعتبرهما وجهين متكاملين لسر شفاء واحد.

ما نبحث عنه في الاعتراف هو أكثر من مجرد حل خارجي وقانوني للخطايا إننا نبحث عن شفاء لجراحاتنا الروحية العميقة، فلا نطرح أمام المسيح خطايا محددة فقط، بل واقع الخطيئة فينا أي الفساد العميق الذي يعتري

طبيعتنا الذي لا يمكن التعبير عنه بكلمات محددة والذي يفوق وعينا وإرداتنا، هذا ما نطلب الشفاء منه بالتحديد. بما أن الاعتراف هو سر علاجي فهو ليس ضرورة مؤلمة أو نظاماً تفرضه علينا السلطة الكنسية بل هو فعل مفعم بالفرح والشكر الخلاصي. بواسطة الاعتراف نتعلم أن الله هو في الحقيقة ''رجاء الذين لا رجاء لهم'' كما نرتل في خدمة القداس الالهي بحسب القديس باسيليوس. إبتداءً من اللحظة التي ننظر فيها إلى الاعتراف على أنه من صنع المسيح لا من صنعنا نحن، يبدو لنا سر التوبة تحت ضوء أكثر إيجابية إذ يكفّ عن إضهار تشتتنا وضعفنا ليعكس محبة الله ومسامحته الشفائيتين. علينا أن نرى في أنفسنا ليس فقط الابن الضال الذي يمشي ببطء وخطى ثقيلة على درب العودة الطويل وإنما أيضاً الأب الذي يراه من بعيد ويسرع إلى ملاقاته. يعبر عن هذا تيتو كوليااندر بقوله: ''إذا خطونا نحو الله خطوة واحدة فإنه يخطو نحونا عشر خطوات''. وهذا بالتحديد ما نعيشه في سر الاعتراف.

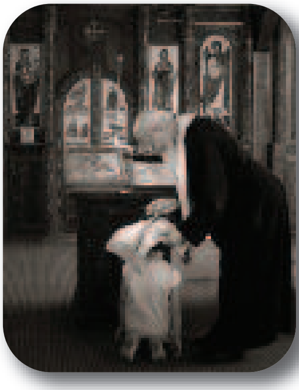

والاعتراف كسائر الأسرار الأخرى فعل إلهي - إنساني تشترك فيه النعمة الالهية وإرادتنا الحرة وتتعاونان. فالاثنتان على درجة من الأهمية، لكن ما يفعله الله يبقى أهم بكثير.إذاً إن التوبة والاعتراف يسا مجرد شيء نفعله من تلقاء أنفسنا أو بمساعدة الكاهن بل هذا شيء يفعله الله معنا وفينا. يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: ''فلنأخذ دواء التوبة الخلاصي، ولنقبل من الله التوبة التي تشفينا لأننا لسنا نحن من نقدمها إليه بل هو الذي يقدمها إلينا''. ما هو بالتحديد دور الكاهن في هذا العمل المشترك؟ من جهة، نجد أن دوره واسع وشامل جداً. فكل الذين لديهم أب اعتراف منعم عليهم بموهبة الارشاد الروحي يمكنهم أن يشهدوا على أهمية دور الكاهن إذ إن وظيفته تتعدى مجرد تقديم النصائح. فالتوبة ليست عقاباً أو شكلاً من أشكال التكفير بل هي وسيلة شفاء. النوبة دواء. وإذا كان الاعتراف الحقيقي بمثابة العملية الجراحية فالتوبة هي المقوي الذي يعيد للمريض عافيته خلال تماثله للشفاء. إذاً التوبة هي، شأن الاعتراف بكامله، أمر إيجابي في هدفه الأساسي: فهي لا ترفع حاجزاً بين الخاطئ والرب بل هي جسر يصل أحدهما بالآخر. ''فاعتبر بلين الله شدّته''(روميه ١١، ١٢) ليست التوبة تعبيراً عن قسوة الله فقط بل عن محبته أيضاً. إن الأب المعرف، المخول سلطة الربط والحل، يتمتع بهامش واسع من الحرية في اختيار الارشادات أو النصائح وفي التوبة العلاجية التي قد يفرضها على ابنه الروحي وبالتالي تقع على عاتقه مسؤولية كبرى. لكن دوره يبقى محدوداً فالاعتراف، كما رأينا، موجه إلى الله وليس إلى الكاهن. فالله هو الذي يمنح الغفران. إن الشفاء الذي نصبو إليه من خلال سر الاعتراف أسبه بالمصالحة.

وهذا لأن إفشين الحل يقول: ''لا تقصه (ها) عن كنيستك المقدسة الجامعة والرسولية بل اجعله (ها) متحداً (ة) بقطيع نعجك الطاهر''. (في الطقس الروسي). هكذا فإن الخطيئة كما يطالعنا بذلك مثل الابن الضال، هي منفى وعبودية وإقصاء النفس عن العائلة. وكما يقول ألكسي خومياكوف (ت. ١٨٦٠): ''عندما يسقط أحدنا فإنه يسقط بمفرده''. أما التوبة فهي بمثابة العودة إلى المنزل والعودة من العزلة عن الجماعة من أجل الدخول مجدداً في العائلة.

هذه هي خبرتنا حيال ''الحكمة العظيمة'' أو ''تغيير الذهن'' كما تعبر عنها كلمة توبة. فالتوبة المفعمة ألماً وفرحاً في آن معاً تعبر عن التوتر الخلاّق الذي لطالما طبع الحياة المسيحية على هذه الأرض والذي وصفه القديس بولس بأسلوب حي بقوله: ''نجمل في أجسادنا كل حين موت المسيح لتظهر في أجسادنا حياة المسيح أيضاً (...) مائتين وها إنّنا أحياء (...) محزونين ونحن دائماً فرحون''. (٢كور ٤, ١٠, ٦, ٩ -١٠). حياتنا إذاً حياة توبة مستمرة وبما أننا من تلاميذ المسيح فحياتنا هي أيضاً مزيج من حادثة الجسمانية والتجلي, والصلب والقيامة. يلخص القديس يوحنا السلمي هذه الحالة الداخلية بقوله: ''من لبس, كلباس العرس, الفاجعة المغبوطة والمكلّلة بالنعمة يعرف الفرح الروحي''.

أنت تقول ....اما الله فيقول

أنت تقول: « إنه مستحيل ''الله يقول : «كل شيء ممكن فقال غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله '' (لوقا '' ١٨: ٧).

أنت تقول: ''أنا متعب جداً '' الله يقول: أنا أريحك '' تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم'' (متى١١: ٢٨).

أنت تقول: « لا أحد يحبني بالحقيقة'' الله يقول: أنا أحبك'' لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية'' (يوحنا٣: ١٦).

أنت تقول: « أنا لا أستطيع الاستمرار'' الله يقول: تكفيك نعمتي: ''فقال لي تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل'' (كورنثوس١٢: ٢٩).

أنت تقول: « لا أستطيع فعل ذلك'' الله يقول: تستطيع كل شيء '' أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني'' (فيليبي ٤: ١٣).

أنت تقول: « أنا غير قادر'' الله يقول: أنا أستطيع'' والله قادر أن يزيدكم كل نعمة تكونوا ولكم كل اكتفاء كل حين في كل شيء لكي تزدادون في كل عمل صالح'' (٢كورنثوس٩: ٨).

أنت تقول: «أنا لا أستطيع أن أغفر لنفسي''الله يقول : قد غفرت لك'' إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم''١ (يو١: ٩).

أنت تقول: «أنا خائف'' الله يقول: أنا لم أعطيك روح الخوف''لأن الله لم يعطنا روح الفشل بل روح القوة والمحبة والنصح'' (٢تيوثاوس١: ٧).

أنت تقول: «أنا دائماً مضطرب ومحبط'' الله يقول: ألق علي كل همك''ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم'' (١بطرس٥: ٧).

أنت تقول: « أنا أشعر أني وحيد'' الله يقول: « أنا لن أتركك أبداً ولن أنساك لأنه قال لا أهملك ولا أنساك''(عبرانيين ١٣: ٥)

« ايها الرب يسوع المسيح ، يا من قطعت بآلامك رباط خطايانا ونفخت في وجوه رسلك قائلا لهم: «خذوا روحا قدوسا''. من تركتم لهم خطاياهم تُركت ومن امسكتموها عليهم اُمسكت''. فبما أنك ايها السيد قد منحت بواسطة رسلك القديسين جميع الذين يخفلونهم في خدمة كنيستك المقدسة ان يتركوا الخطايا على الارض ويربوطوها، وان يحلوا كل رباط ظلم، لهذا نطلب اليك نحن الخطأة ان تسكب علينا رحمتك وتقطع رباط خطايانا، سواء قلنا او فعلنا عن جهل او لقلة اكتراث،ان تغفر لنا جميع خطايانا الطوعية والكرهية بما انك السيد الصالح والمحب البشر والديَان العادل الحنون لانك انت وحدك العارف بخفايا القلوب، لهذا نطلب اليك ان تصفح لنا وتحلنا من قيود الخطيئة، لان اسمك مبارك وممجد مع الآب والروح القدس، الآن وكل آن والى دهر الداهرين. آمين»

أيقونة سرّ الإعتراف